

## التفاؤل والتشاؤم ونقطة الوسط

ان الحياة جميلة بمقدار جهدنا فيها... قبيحة بنوعية منظارنا لها ومقياس التفاؤل والتشاؤم يتفاوت في ميزان الحياة باختلاف الكم والكيف أو الحجم والنوع في العمل، فأطنان الوزن من العمل المتصل قد يسقط أجر صاحبه في حساب الكيفية والنوعية... فيكون اختلال القياس جزءا من أصل المعادلة... وهذه مصيدة الاحباط التي يقع فيها الكثيرون نتيجة قناعات بأعمال ترجح كفة الشكل على المضمون... فرب ذرة من عمل صالح خير من قنطار وفره من جهد مشبوه.

ان الحياة لا تسير على وتيرة واحدة أو نمط معين لأن التنوع والاختلاف أساس تكوين الانسان... حتى لو كانت هذه الوتيرة أنغاما شجية وافراحا متصلة من التفاؤل ففي النهاية قد تدفع بالانسان الى كسر حلقة الرتابة والدخول في رحابة التفاؤل اذا فتجاوز النقيض حدوده المعقولة يولد النقيض الآخر. ويؤكد حقيقة أن الحياة مزيج من التفاؤل والتشاؤم... النجاح والفشل... الالم واللذة... الضيق والفرح... الانطواء والانبساط... الفرح والغضب ثم الموت بعد الحياة.

### نقطة الوصول :

كثيرا ما يغرق الانسان في التشاؤم نتيجة الشعور بالجهد الضائع أو يفرط في التفاؤل ضحية الاحساس بالحظ المواتي ويفكر ويقدر...

وتضحك الاقدار... ومشاكل أكثر الناس في أغلب مجالات الحياة وليدة محاولة الوقوف في أحد طرفي الخط المستقيم بداية من اللاشيء الى اللانهاية... فالبداية لا بد أن تكون من نقطة الصفر أما نقطة النهاية فليست لها حدود وهي في علم الغيب... فنقطة الصفر عند البعض قد تكون موقف الاحباط يبدأون منه وينتهون اليه وعند البعض اثاره الشعور بالتحدي لبلوغ أطول مدى في هذا الخط الطويل ومعظم الناس يقعون في نقطة الوسط... والوصول الى نقطة الوسط في حد ذاته يحتاج الى جهد معقول وعطاء مبدول يفوق جهد محاولات الوصول الى أحد طرفي المستقيم... التشاؤم أو التفاؤل أو صعوبة البقاء في القمة ( وحتى الذين يصلون قريبا من نقطة النهاية قد يعانون نفس الشعور بالاحباط عندما يرصدون المسافة التي تفصل بينهم وبين نقطة الوصول للحقيقة.

وبوابة دخول هذه المتاهة تؤكد أن الحياة عمليا ليست خطا مستقيما كما يتخيل البعض له نقطة بداية ونهاية في مسار مسطح وحسابيا ليست الخط الذي يوصل بين نقطتين. من أقصى اليمين الى أقصى اليسار أو من أعلى الى أسفل... ان الحياة تسير تارة في شبه منحنى جرسى وتارة في شكل دائري وأخرى في شكل موجات متلاحقة في بحر هائج... وهذه المنحنيات والدوائر والتموجات تدخل في تكوينها عناصر عدة أكثرها خارج ارادة الفرد... وان كانت في حدود رؤيته الشعورية حسب قدرته على قراءة الأحداث من خلال الواقع.

### منطقة الظل :

يتضح أن معظم الناس يقعون في منطقة الظل... ما بين الأبيض والأسود، وحقيقة أن الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات يؤكد أن منطقة الظل هي محيط الدائرة التي تدخل فيها هموم أكثر الناس وتقذف بهم الى داخل هذا الفك المفترس في صراعهم للوصول الى ( جزر الوسط ) في محيط الحياة.

من المؤسف أننا نعيش زمان رهان على كل شيء، ومحنة هوان في كل شيء، رهان الانسان بحياته وأسرته رغبة في الخلاص من قبضة الأبيض والأسود وهوان الانسان بآدميته في صراعه للخروج من عنق الزجاجة التي طفحت باحزانه اليومية وأفرزت الأزمات النفسية والاجتماعية التي يعيشها المجتمع المعاصر وهو يمشي في الرمال المتحركة كلما أوغل في السير غاصت قدماه في أعماق سحيقه... فلا التقدم الى الأمام ممكن ولا العودة الى الوراء سهلة... ويظل الانسان يتحرك (مكانك سر) حتى الاعياء... ويجلس في لحظة حساب مع نفسه في صراع الأرقام... ورصد حساب الربح والخسارة مستعدبا حالة الدوران التي يصورها ثلاثة شعراء :

فيقول ايليا أبو ماضي... شاعر المهجر الكبير :  
أيها المشتكي وما بك داء      كن جميلا تر الوجود جميلا  
ويقول فيلسوف المعرفة... أبو العلاء المعري :  
تعب كلها الحياة فما      أعجب الا من راغب في ازدياد  
ويقول بشار بن برد :  
إذا كنت في كل الأمور معاتبا      صديقك لن تلقي الذي لا تعاتبه  
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى      ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه  
فأين نقطة الوسط... في منطقة الظل ؟

### طريق العودة :

ان غريزة البحث عن نقطة الوسط توجد حتى في أكثر قطاعات المجتمع خروجا عن معايير الاعتدال.

ان جماعات (الهيبيز) التي بدأت من التشاؤم المفرط نتيجة الفقر والضياع ولجأت الى المخدرات والعنف رفضا للواقع وهدما للقيم ثم وصلت أعلى مراتب الشهرة والثراء تحت ظل التفاؤل المفرط وبين الانتقال من النقيضين في المواقف ظلت تبحث عن بديل... عن هدف في الحياة

يعطي الحياة معنى... وتحضرني أغنية للمطرب الانجليزي الشهير ( كلف رتشارد ) بعنوان ( عد لي أيها المسيح ) اكتسحت أسواق أوروبا في السبعينات وحملت جماعات الهييز لافتات غطت ساحة بيكاديللي والطرف الآخر حول الهدف الجديد ( العودة الى المسيحية ) حتى أن المجتمع الانجليزي أصيب بحالة ذهول عندما وجد جماعات الرفاة والمخدرات تملأ شوارع لندن بشعارات ( العودة الى الكنيسة Back To Christianity ).

بعد تجريب كل أنماط الحياة من التفاؤل والتشاؤم ووجدت أن الحاجة الى الايمان بها هو الخيط الرفيع الذي بقي ليربط الانسان بعجلة الحياة المعطاءة، ويبدو هذا أكثر وضوحا في أغاني المطرب الزنجي (بوب مارلي) في الدعوة لحرية الانسان من عبودية الفساد والمادة ومحاربة العنصرية والصهيونية وأعطى قيمة جديدة لحياة جيل الانحراف.

وفي الجانب الآخر نشر في ذات الوقت كتاب ( الحاجة الى الايمان ) للكاتب الأمريكي ديفيد وولتر (The Need For Faith) أثناء فضيحة ووترجيت ابان المعركة الانتخابية الأمريكية حول علاقة الناخب بالمرشح حيث يؤكد ضرورة العقيدة : دينية... فلسفية... سياسية... اجتماعية في برنامج أي مرشح كصفة أساسية للتمتع بثقة الناخب ويؤدي خطورة عدم وجود خلفية فكرية للمرشح... تمثل صمام الامان في حركة المرشح في الاتجاه الصائب نحو القرار الصحيح... وتمثل البوصلة في يد المواطن العادي الذي يستطيع أن يرى بها الاتجاه المتوقع لسير حركة الحاكم تجاه الأحداث... ويؤكد أن الفرد المتجرد من قيد الايمان بفلسفة أو هدف محكوم بتذبذب المواقف... وتقلب المزاج ويصعب ضبط حركاته المتأرجح في فراغ.

### في الاتجاه الآخر :

ان الروح الميكيافيليه التي تسيطر على المجتمعات المعاصرة بشعار ( من ليس معنا فهو ضدنا ) قد وضعت الانسان بين فكي الرحي بصورة

جعلت خيارات الانسان محدودة في التعامل مع الواقع وأخطر الخيارات  
حتمية السير في أقصى الاتجاهات سواء الوقوع في متاهات ( صوفية )  
سلبية مستسلمة ترفض الواقع جملة وتفصيلا أو اللجوء الي أنظمة  
ايدولوجية متطرفة تهدف الى تغيير هذا الواقع شكلا ومضمونا او محاولة  
اجتناب الموقفين في نظرية ( مثالية ) ترى الحقيقة المطلقة كامنة في عالم  
يتعدى الظواهر ويعطي المظاهر الجمالية قيمة أسمى من الصفات الشكلية  
وهذا لا يبذل واقعا الحاضر أو نظرية ( برجماتيه ) تحاول جادة  
الاستشراف العملي للأمور والمشكلات وهي تتخذ من النتائج العملية  
مقياسا لتحديد قيمة الأفكار الفلسفية وصدقها وهي بهذا المعيار فلسفة  
عملية واقعية ولكنها انتهازية متقلبة... وبين طقوس الصوفية والمثالية  
البرجماتية يجد الانسان نفسه مشدوداً للبحث عن مخرج صدق في  
الحديث ( فوالله الذي لا اله غيره أن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى  
ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار  
فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا  
ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها). صدق رسول الله.

#### \* كلمة أخيرة :

ان التشاؤم الحذر خير من التفاؤل المفرط لدى قلب عقول ولسان  
مسؤول، وهذه بداية تحديد نقطة الوسط...